مستل من كتابي

في نقد العقل السوداني
الخطاب التاريخي نموذجا

الدكتور البشير احمد محي الدين موسي

في التعريف

يُعرف التاريخ في اللغة بأنه (التاريخ أو التأريخ) والتواريخ تعني الإعلام بالوقت، ويدل تاريخ الشيء على غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه، وأيضا يُعرف التاريخ بأنه علم أو فن يبحث عن وقائع الزمان من ناحيتي التعيين والتوقيت، وموضوعه الإنسانالإنسان وزمانه، ومسائل أحواله المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوالالأحوال العأرضة للانسان وفي الزمان[١].

كما يُعرف علم التاريخ بأنه العلم الذي بواسطته نقوم بالبحث والاستقصاء لحوادث الماضي وعرضها للإفادة منها، ولايوجد علم من العلوم إلا وله تاريخ تطوره من صورته البدائية إلى ما وصل إليه اليوم من تطور، الإنسانفالإنسان القديم هو المؤرخ الأول بعد أن تعلم اللغة والكتابة، وأصبح يقص على أبنائه وأحفاده الحوداث التي عاشها أو سمعها،أو ينقل لهم خبرته المتواضعة، فكانت تلك بداية التاريخ والتوثيق لأوجه النشاط الإنسانالإنساني المتنوع الذي حُفظ في أول الأمر بالسرد والمشافهة وتنقل بين الأسلاف إلى أن مسته يد التدوين بالرسم على الكهوف وجدران المعابد والجبال، وتناول أيام الحروب والسلم كلها إلى مرحلة التدوين وتخصص طائفة من العلماء الذين أطلق عليهم (المؤرخون).

أول ما استعملت فيه كلمة النقد كانت بمعني فرز الدراهم والدنانير (قديماً) لبيان الصحيح والمزيف منها وبيان قدرها أيضاً، وتلك مهارة يختص بها الصيارفة، وقال الشاعر في هذا الاستعمال : إن نقد الدينار صعب إلا على الصيرفي، فكيف نقد الكلام ثم انتقلت إلى نقد

[١] د. حسن عثمان، منهج البحث التاريخي،دار المعارف، القاهرة،١٩٦٤م، ط٨، ص١٢

أخلاق الناس وعاداتهم، وبيان ما يتحلون به من كريم الصفات[٢] ومنها إلى الأعمال الأدبية والفكرية وغيرها من ضروب المعارف الأخرى.

في العلاقة بين التاريخ والخطاب التاريخي

قد يبدو للقارئ أنه لايوجد فرق بين التاريخ والخطاب التاريخي، وذلك لتشابه الحقل الذي نصنف فيه علم التاريخ الذي يعبر عن أحداثه وما كتب حوله بالخطاب التاريخي، فالفرق بين التاريخ بصفته أفعالا وسير وأخبار وأحداث وشخوص،بل يمكننا القول بأن التاريخ هو حياة الأسلاف في عصر ما قريب أو بعيد أو أمة من الأمم أو حتى العلوم وكل ما مضى زمنه يحسب في إطار التاريخ، ويبين هذا الجهد أيضاً الخطاب التاريخي ويسعى إلى تعريفه تعريفا مختصراً مقبولاً بأنه المنهجية والأداة الحاملة للتاريخ والذي يعبر عن توجهات تاريخ المجموعات أو الممالك أو الأفراد،فالخطاب التاريخي إذن منتج من التاريخ، (التاريخ) هو الحدث نفسه،وتفسير وتحليل الحدث التاريخي والمواقف المتباينة منه تمثل (الخطاب التاريخي).

فعند ابن خلدون يُستخدم مصطلح (الجيل) وحدة تاريخية ويستخدمه لتفسير ما يلحق العمران من تغيير واستقرار [٣]، ولكل جيل تاريخه وخطابه التاريخي لكن مع تغير طفيف الأحداث و في الخطاب يمكننا معرفة تواريخ الأممالأمم ودراسة ماضيها بعمق رؤية.

نلاحظ أن الخطاب التاريخي يتيه في التجريد والتوصيف، قاطعا صلته مع التاريخ رغماً من أنه يحكي عنه،ومرد ذلك أن تاريخ البشر يتغير باستمرار.[٤]

في العلاقة الزمكانية

تعين العلاقة بين الإنسان والبيئة (المكانية والزمانية) المؤرخ على فهم المشكلات المرتبطة بالاحداث، وتمكنه من استجلاء الدوافع المادية والاجتماعية والاقتصادية ليفكك الحدث التاريخي؛ فالمؤرخ كالمصور يريد أن يوقف زمناً مضى لينقل صورة حية لمجتمع أو شخصية ويفكك آثارها على الإنسانالإنسانية، كما أن علاقة الحيز التاريخي(الحد الزماني) محل البحث

---

[2] www.ab33ad.com/vb/showthread.php?t=1305 النقــد... صياغة من أمثلة.. وتحليل.. – منتديات الأبعاد الأدبية،محمد بن غنام الأسلمي ١/٩/٢٠٠٦

[٣] علي أومليل،الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان،ط٣،١٩٨٥م، ص٦٨.

[٤] علي أومليل، الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص٦٦.

يجب أن يتضمن معرفة وثيقة للبيئة الداخلية والخارجية وحجم التفاعلات سلماً ام حرباً ليخرج بدراسة واعية تمكنه من سبر أغوار التاريخ وفهم علاقاته في الحدث.

فمن حق الشعوب والامم أن تتبع ماضيها وتدرك تاريخها لتعرف مدى مساهمتها في الحضارة الإنسانالإنسانية، وتعرف مكانتها في خط سير التاريخ البشري، وأن تتبين قيمتها في العالم، وهذه ليست فائدة نظرية مجردة بل هي أشمل وأكبر، ويمكن للشعوب أن تحدد موقفها في الحاضر وخطاها في المستقبل، وأن تسير على هدي ومعرفة بالعوامل والظروف المحيطة بها٥.

يختلف علم التاريخ عن العلوم الأخرى لخصوصيته في دراسة الماضي، وقد ذهب العالم ويليام ستانلي جيفونز (١٨٣٥-١٨٨٢م) إلى أنه لا يمكن للباحث أن يُخضع التاريخ للتجريب وإخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعه العلم من المعاينة والمشاهدة والتجريب والفحص والاختبار، وبذلك يصعب الخروج بقوانين علمية صارمة مثل العلوم الأخرى٦.

يرجع أصل فلسفة التاريخ إلى رغبة البشر في أن يجدوا أجوبة لسؤالين جوهريين هما: لماذا حدث؟ وكيف حدث؟ من هنا بدأ الإنسان يجتهد من أجل معرفة القوانين المسيرة لهذه الحوادث والتواريخ، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر حدثت طفرة في الدراسات التاريخية في العصر الحديث نتيجة لحالة الوعي الأوروبي، ورد فعل طبيعي لسيادة النظرة المسيحية في تفسير التاريخ ووقائعه، حيث اعُتبر أن التاريخ هو تحقق المشيئة الإلهية حسب نظرة الكنيسة، وكما الحال في الإسلام الذي أوجد تعريفات مفاهيمية للتاريخ أيضاً، ولكن الشرق في عصوره الوسيطة شهد المعرفة وتوسع الفكر الإسلامي وظهرت مدارس متعددة عبرت عن أوجه التفسير المختلفة كالمعتزلة والمدرسة الخلدونية وغيرهم[٧].

في تفكيك العنوان

لا يقصد بمفهوم النقد هنا إظهار النفائص ولا إثبات الفضيلة وإظهارها بقدر ما أذهب إلى مفهوم المفكر كانط الذي يُعرف النقد بأنه إثبات حدود الصلاحية، وتذهب الأستاذة حياة

---

[٥] د.جمال عبد الهادي محمد مسعود ود.وفاء محمد رفعت جمعة،منهج كتابة التاريخ الإسلامي لماذا وكيف،دار الوفاء للطباعة والنشر القاهرة،ط٣،١٩٩٤م،ص٦.

[٦] د.حسن عثمان،منهج البحث التاريخي،دار المعارف، القاهرة،١٩٦٤م،ط٨،ص١٦

[7] https://www.ida2at.com/what-do-you-know-about-modern-historical-schools/محمد عبد الشفيع عاشور ٢٠١٧/١/١٦م ما الذي تعرفه عن المدارس التاريخية الحديثة؟

تابتي إلى أن مفهوم النقد التاريخي يعني (التحقيق مع النص الذي بين أيدينا وأيضا هو عملية فكرية لضبط النص)[٨].

المقصود بـ(خطاب العقل) تلك الأدبيات الفكرية التي تكلمت كثيراً عن العقل والمعرفة والمنهج والإبستمولوجيا، وشخّصت مشكلات العالم العربي أو جانباً أساسياً منها ببعض خصائص (العقل السوداني). تنتقد هذه الأعمال أحوال (المجتمع السوداني) من وجهة ما يُفترَض أنه (العقل العام) الكوني، وترهن التغير الاجتماعي والثقافي، والسياسي أيضاً، بأشياء يفترض أن تجري على صعيد العقل والثقافة.

في أهمية الخطاب التاريخي والمؤرخ

تنبع أهمية علم التاريخ للشعوب بصورة عامة لأنه يحفظ تراثها ويؤكد نضال الآباء الأوائل ويحفظ السير،وإذا اشتغل عليه رجال العلم يمكنهم استخلاص العبر والدروس من علم التاريخ لتحصين مستقبل الأمم من الأزمات التي تتمظهر كل مرة بمظهر جديد، لذلك ليس كل مشتغل بالكتابة في التاريخ هو (مؤرخ) لأن المؤرخ تتوافر عليه شروط وامتيازات معرفية مكتسبة بالعلم والقدر الكافي من التحليل، فالمؤرخ هو الأمينالأمين على تراث الإنسانالإنسانية والمجتهد المتنقل بين المراجع ليقارن والذي يتنقل بين المناطق المختلفة ليتحقق من رواية أو حدث ويقارنه ما في المراجع والمصادر،وهو الذي لا يعمل أرضلأرضاء سلطة (زمانية أو مكانية) أو طائفة ما، ولا يتعجل في دراساته لنيل منفعة ولا يتكلف لإظهار نفسه بل هو الراوي الأمين، والمحلل للتاريخ والذي يستبصر العبر ويفهم الأحداث ويعلم سير الرجال فعمله تراكمي يبدأ في تجميع الأحداث ثم يربط بينها، ولا يجتهد إلا أن يفسر الظاهرة التاريخية إلا في عصرها ولا يقارنها بعصره لكي يكون أميناً مع نفسه، وقادرا على أن يتحرر من كل القيود لمصلحة المعرفة.

فالمؤرخ هو الناقد الذي يبدي رأيا في كل وثيقة أو مرجع أو مصدر أو رواية، ويتحقق من مصداقيتها، لذلك على المؤرخ أن يكون واسع المعرفة كثير الاطلاع قادرا على فهم التراث الموروث واللهجات المحلية للمنطقة التي يبحث عن تاريخها قدر المستطاع،كما عليه أن يحيط بكل الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، ويدرس التاريخ العسكري والوقائع ودوافعها لكي يحلل

[٨] مجلة كان التاريخية، العدد٤٥ السنة العاشر،٢٠١٩،د.حياة تابتي، النقد التاريخي ودوره في إبراز الحقائق التاريخية، ص١٠.

الحدث عن وعي وإدراك دونما أن يظهر إعجابا أو كراهية لفكرة أو جماعة وأن يبعد دوافعه الشخصية والإيديولوجية ما أمكن ولا يبرز إلا في صورة رجل العلم والمعرفة.

عقبات كثيرة يجب على المؤرخ أن يهتم بها منها اختلاف الرؤى والتفسير لكثير من الأحداث التاريخية، وقد يقود هذا الاختلاف إلى صراع في الماضي أو الحاضر فيجب على المؤرخ أن ينصب نفسه قاضي العدالة فلا يميل إلى مجموعة على حساب الآخرين.

لأن عملية التدقيق في التاريخ (نشاط المؤرخ) من أصعب الأعمال لأنه يتوجب عليه البحث والغوص في المراجع وعقد المقارنات وفهم الجغرافيا والتأمل في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والمحركات السياسية، لأن وظيفة المشتغل بهذا الضرب من المعرفة ليس السرد فحسب، بل عليه أن يمعن في ما وراء الأحداث، ويدرس آثار الحدث على المجتمعات والأفراد و ردود الأفعال للخروج بخلاصات تعين الأجيال القادمة لعدم تكرار الظواهر السلبية وهذا فعلا بعد عسير.

وقد تكون المراجع والوثائق والروايات الشفاهية مزورة أو بها تدليس أو تجيير فيجب على المؤرخ أن يعمل المناهج العلمية وذكائه ليقارن ما بين يديه من معطيات مكتوبة أو مصورة أو محفورة أو مروية أو ما تعلمه من اللغات والمهارات الجغرافية والانثروبولوجية، وحتى يمكن أن يخبره به من المختصين في العلوم الأخرى لكشف الغموض، وتصحيح ما يرد ويتناقل من المعلومات التاريخية[٩] ،وأن بدت له صحة معلومة بعد أن اعتبرها فعليه أن يتراجع.

مدارس المؤرخين

الكتابة في التاريخ العربي والإفريقي على وجه العموم، وفي التاريخ السوداني علي وجه الخصوص، يقع بين ثلاث مدارس أو ثلاث حلقات معرفية أو مستويات مؤطرة بأطر هي.

١. **(مدرسة المؤرخين التقليدين)**

وعلى الرغم من أنها أنتجت كما كبيرا من المؤلفات إلا أنها لم تخرج من إطاري السرد وحشد الوقائع التاريخية، ويقل فيها الاهتمام بالتحليل فهي أقرب إلى المدرسة الشفاهية أو هي توثيق لأغلب منتوجها التاريخي. إلا أن هذا الضرب من الاشتغال بالكتابة (لا يقدم صورة واضحة عن تاريخ البلاد لأنه يحمل سرديات تحتاج إلى تنظيم المادة فخُذ مؤلفي الأستاذالأستاذ عبد القادر محمد عبد القادر دورة في (الوسادة في تاريخ تقلي)، وكتابه

[٩] منصورية قدور،النقد التاريخي وأهميته في إبراز الحقيقة التاريخية، مجلة رواق للدراسات الإنسانية والاجتماعية،المجلد٠٧،العدد الاول،لسنة ٢٠٢١م،جامعة أحمد زيانه غليزان،الجزائر،ص٥٢٤.

الثاني(تاريخ مملكة تقلي) فالكتابين حشدا معلومات في غاية الأهمية إلا أن تنظيم المادة وخلوها من التحليل وتداخل فصولها كانت من سمات هذه المدرسة. لم يشذ دورة عن كثير من أعمال المؤرخين التقليديين. والمدرسة التقليدية اعتمدت على أدوات مناهج تحقيق السير والأخبار (الإسلامية) التي اعتمدها مؤرخو السيرة النبوية في تخريج الأحاديث الشريفة والسنن وإعمال الفكر في مسائل الاجتهاد مما جعل مساهمة هذه المدرسة واضحة من ناحية اللغة واستخدام المفردات والسجع والميول إلى الصياغة، وتراث هولاء المؤرخون أقل من غيرهم من المؤرخين الآخرين.

فالمؤرخين التقليديين أو يمكن تصنيفهم بأنهم شهود على الأحداث التاريخية والذين استفزتهم كتابات الأجانبالأجانب عن التاريخ السوداني أو ما عاصروه فجاءت المحاولات الأولى عبارة عن ردود على الخطاب الذي استهدف ما عاصروه وشاهدوه، فهاهو شيخ المؤرخين محمد عبد الرحيم حينما يضع مخطوطته الشهيرة والتي حملت اسم (الهدية في الخطط السودانية) ردا على كتاب سجين المهدية وأسيرها اللواء إبراهيم فوزي إبراهيمباشا (السودان بين يدي غردون وكتشنر) الذي كان متحاملاً في سرده لتاريخ المهدية. وبدأ في ١٩٢٠/٢/٢٠ بتأليف كتاب عن تاريخ السودان اسماه " الهدية في الخطط السودانية" ولا يزال هذا الكتاب (الذي جمع كثيرا من الروايات الشفاهية والمكتوبة) مخطوطا ينتظر النشر. ولعل محمد عبد الرحيم كان قد نظر في عنوان كتاب علي مبارك باشا والمعنون: (الخطط التوفيقية الجديدة)، والذي استوحاه بدوره من كتاب المقريزي (الخطط المقريزية)[١٠].

٢. مدرسة الكتاب المؤرخين(المحدثين أو الحديثة)

هذه المدرسة وإن كانت تطمح إلى «التجديد في طريقة الكتابة»، فإنها ظلت تعاني من حالة التوهان بين ما خطه الأجانب والرواية الشفاهية إلا أن إسهامات هولاء المؤرخين لا يمكن إنكارها من حيث جودة المحتوى وغزارة الإنتاج مع الاهتمام بالترجمات وأعمال التحقيق للمخطوطات والاسترشاد بالمناهج العلمية، وقدمت خطابا تركيبيا للتاريخ، استنادا إلى أعمال المؤرخين القدامى، وإسهامات المحدثين (الأجانب فإنها قدمت تركيبا هجينا بين (التقليد

---

[١٠] A. S. Karrar, Y.M. Ibrahim and R. S. O?Fahey ترجمة البروفسير بدر الدين حامد الهاشمي،مقالة بعنوان حياة وكتابات مؤرخ سوداني: محمد عبد الرحيم (١٨٧٨ ؟ ١٩٦٦م) The Life and Writings of a Sudanese Historian: Muhammad Abd Al –Rahim (1878 ? 1966).

والحداثة) يرقى إلى مستوى المدرسة التاريخية الحديثة[١١].واستفاد المحدثين من المناهج الغربية والعلوم الحديثة مما جعل إنتاجهم متوازناً ويغطي فترات زمنية بعيدة ويقدم إجابات لأسئلة الحاضر عن الماضي.

فالأجيال الجديدة من المؤرخين الذين برزوا في فترة ما بعد الاستقلال كانوا أكثر إدراكا ووعياً بعملية التدوين والتأليف لحفظ التراث السوداني من الضياع وظهرت مستوعبات في دار الوثائق القومية لحفظ المخطوطات، واستفادت من الوثائق والكتب والصور التي جمعت في فترة الاحتلال البريطاني، وأيضاً تكونت مجموعات أرشيف تخص الجامعات والمكتبات في السودان وبريطانيا وأميركا وفرنسا وغيرها من الدول التي كان لها اهتمام بتاريخ السودان.

مثلت دار الوثائق القومية بالسودان الذاكرة الحية التي استوعبت عدداً مهولا من (المؤلفات والمخطوطات الأوراقوالأوراق الحكومية الرسمية والتقارير والنشرات والأحكام واللوائح والمذكرات الرسمية والشخصية إضافة إلى سجلات الأعمال)، وقد أسست في فترة الحكم البريطاني المباشر وأُطلق عليها اسم (مكتب محفوظات السودان)، ثم أصبحت تسمى عام ١٩٦٥ دار الوثائق المركزية، وهي المؤسسة المعنية بحفظ السجلات والأرشيف الحكومي إلى جانب الوثائق السودانية من مخطوطات ووثائق مختلفة. عملت دار الوثائق المركزية على جمع وتصنيف الوثائق والمخطوطات فتم جمع عدد كبير منها وأصبحت تمثل الذاكرة الحية للأمة السودانية والحامي لخطابها التاريخي من أوراق وكتب ومجلات ونشرات حكومية وعقود وغيرها من المستندات الرسمية التي تذخر بها مجموعات دار الوثائق القومية،،وكذلك تم تجميع وثائق ومخطوطات من عصور الممالك المسيحية والإسلامية وفترة الحكم الخديوي بجانب وثائق ومخطوطات فترة المهدية، ومجموعات وثائق أخرى مهمة، فإنها تحتفظ أيضا بعشرات الآلاف من الوثائق عن فترة الحكم الثنائي.

وقد شاع أنه قد تم التخلص من بعض الوثائق بعد الاستقلال. وليس هنالك من تسجيل أو حصر لأعداد أو أنواع الوثائق التي ضاعت أو تم التخلص منها في العاصمة والمراكز في المديريات. بل لقد تم التخلص من كثير من الوثائق القديمة حتى تفسح المكان لمكاتبات ووثائق حديثة! أما الوثائق في جنوب السودان فقد تم التخلص من غالبها، وتعرض بعضها للضياع، وقد تكون بعض تلك الوثائق في حوزة مسئولين سابقين،وقد قدم البروفسير بدر الدين حامد الهاشمي المترجم الموسوعي عن ما نقله من البروفيسور بيتر ودوارد في مقال بعنوان (التحولات السياسية في ماضي وحاضر السودان) أن السير وليام ليوس ذكر له أنه، وقبل أن يغادر السودان عشية الاستقلال، قام بالاتصال بوزارة الخارجية البريطانية في لندن ليسألهم إن

---

[11] https://www.alakhbar.press.ma الجابري» ونقد العقل التاريخي الأخبار آخر دخول ٢٠٢٢/٤/١٨م، ٢٠٢ي عبد السلام المنصوري

كانوا يرغبون في أن يقوم بشحن كم هائل من الوثائق البالغة السرية المحفوظة في قصر الحاكم العام لهم، ولما أتت الإجابة بالنفي لم يجد السير بدا من حرقها في أحد أركان حديقة القصر[١٢]

٣. (مدرسة المؤرخين والكتاب الأجانب)

وفي السودان تأثرت عملية تدوين التاريخ بالمدرستين التاريخيتين الاستعماريتين المتصارعتين (الإنجليزية والمصرية) ويقع بينهما خلاف حاد في تفسير وتحليل الأحداث ودور الفاعلين فيها حول ما عُرف باسم(المسالة السودانية)،إذ يتم في الغالب تجيير الأحداث لصالح الأهداف التي تنطلق منها خلفيات المؤرخين الأجانب ويحاولوا إظهار أن قوة الحق لجانبهم وأن الآخر هو المخطئ، وان السودانيين ليسوا الضحايا، بل إنهم أنكروا أفضال أقطارهم عليهم،وأسهم الكتاب الأجانب في رسم صورة بائسة للسودان وكالوا الكثير من السباب لشعبه وتاريخه مما زعزع اللحمة الوطنية وأورث الأجيال اللاحقة الحروبات وظاهرة التمرد المسلح وضعف الروح الوطنية وتغليب القبلية والجهوية، فرواد هذه المدارس لم يقدموا النموذج المشرف في سياقات بحوثهم، بل كانوا داعمين لقضايا مثل سيادتهم علي السودان وأراضيه، وعلى الرغم من أن أغلبهم يمتلك مؤهلات علمية وقدرات جيدة إلا أنهم دعموا النهج الاستعماري، وكتبوا بدوافع تخصهم متجاوزين الأمانة العلمية وتدفعهم، نزعة عنصرية واستعمارية بغيضة.

المدرسة الغربية

تناول المؤرخين الغربيين من مختلف جنسياتهم (بريطانيين وأمريكيين ونمساويين وفرنسيين وألمان وايطاليين وغيرهم) بالبحث في تاريخنا الحديث، ووضعت مؤلفات كثيرة كتبها حكام أو إداريون (مفتشين) وضباط وتجار ومستكشفين ورحالة خدموا أو قاموا بسياحة في تلك الحقبة مثل تشارلز غردون(يوميات غردون)، صمويلوصمويل بيكر وجون لونق شايل(حياتي في أربع قارات)، و(حقائق عارية عن مجاهل أواسط إفريقيا)، واليهودي فيتا حسن (حقيقة أمين باشا)، وسلاطين (السيف والنار)، وفرانك باور(رسائل من الخرطوم)، وونغت باشا (المهدية في السودان المصري)، وونستون تشرشل (حرب النهر)، وهنري سيسل جاكسون في مؤلفاته وترجماته(أيامي في السودان) و(المقاتلون السودانيون) و(قصة الزبير باشا كما يرويهابنفسه) و(العاج الأبيض والرق الأسود) و(عثمان دقنة)، أو الرحالة مثال اقناتيوس بالمة

[12] بدر الدين حامد الهاشمي، إرث الحكم الثنائي البريطاني المصري، نشر علي موقع https://www.alrakoba.net/628072 الراكوبة بتاريخ ٢١ يوليو ٢٠١٥م

وبروان روليت وبيلارد تيلر وفردريك كايو، أو ضباط مثل ولسيلي في مذكراته وغيرهم (هذا ليس للحصر وإنما لتقريب الصورة)، أو المبشرين والآباء الرسوليين. كما كتب مؤرخون مثل رتشارد هيل(لديه ٨مؤلفات)، والان مورهيد(النيل الأبيض) و (النيل الأزرق)، ونيكول فيرغس(سيف النبي). إضافة إلى كتابات السجناء والأسرى والتجار وغيرهم عن تلك الحقبة من تاريخ السودان الحديث.

على الرغم من أن أفندينا (محمد علي باشا) ومن خلفه في سدة الحكم من الخديويين عينوا إداريين وضباط، وفتحوا أواسط إفريقيا للرحالة والتجار من الأوروبيون في السودان، وأصبحوا أصحاب أملاك نتيجة للامتيازات التي نالوها من الحكم الخديوي، وقد ساهم الرحالة والتجار والقناصل في رسم صورة انطباعية عن بلاد السودان، وهذا التصور قائم على مشاهدات الروايات التي تم توظيفها في أعمالهم التي انتجوها ونشرت في الغرب. إلا أن المؤرخين والرحالة والإداريين يتفقون في تحليلهم العام لتلك الحقبة الخديوية (الترك) في وصفها بداية من الحكام وعسف العسكر ونهبهم للموارد، وتشير الأدبيات المكتوبة عن تاريخ السودان الحديث التي وضعها المؤرخين والكتاب الغربيين إلى المحورية (الرق) على الرغم من أن من أذكاها هم التجار الغربيون أنفسهم حيث امتلكوا (الزرائب والكبانيات).

بعض اتجاهات ما نشر عن فترة الحكم الخديوي في السودان والتي لا يفصلها المؤرخون الغربيون بالأخص المؤرخين الإنجليزالإنجليز عن المهدية ويروا أن سبب قيام المهدية وحالة الهياج يعود إلى معاناة إنسان السودان في تلك الحقبة وأدت المظالم إلى تأييد العمل المسلح الذي تبنته المهدية ١٨٨١-١٨٨٥م.

١. فتقرير الليفتانت كولونيل ستيورات عن الأوضاع في السودان ١٨٨٣م الذي قدمه لحكومة صاحبة الجلالة والذي صور في التقرير الأوضاع بعد اشتداد المهدية وانتصاراتها علي جيوش الحكومة الخديوية، وذلك في اعقاب احتلال مصر في العام ١٨٨٢م وتورط بريطانيا في السودان. يذهب ستيورات بقوله في تقريره (أصبح معلوما لدى الجميع عدم كفائتهم (الخديوية) في الحكم، وأنه ليس من المفيد مناقشة هذا الأمر)، وأدى هذا التقرير إلى تبني سياسة إخلاء السودان التي تبناها المستر غلادستون بعد هزيمة هيكس.حيث حمل مسئولية هزيمته إلى جنود الخديوية وفساد الحكم الذي قاد إلى ثورة تطالب بحرية السودان. بالتالي فإن (مستنقع السودان لن تورط

بريطانيا أرجلها فيه) بل تسحب الحاميات من السودان.. وبناء عليه رُفضت خطة شريف باشا القاضية بعدم الانسحاب واستقدام جيوش عثمانية لدحر المهدية أو جيوش بريطانية مما أدى إلى استقالة شريف باشا الذي قال إنه لن ينفذ الإخلاء وعُيّن بديلا عنه نوبار باشا الذي وافق على الإخلاء أو ما جاء في تقرير ستيورات باشا الذي كان له أثر كبير في مجريات الأحداث.

٢. أدبيات وينغت باشا وهو رئيس قلم المخابرات وحاكم عام السودان وضع مؤلفه الشهير (المهدية في السودان المصري)، وساهم في وضع العديد من المؤلفات التي كتبها سلاطين واورهالدر وتشارلز نيوفلد ضمن الدعاية الحربية لإعادة احتلال السودان. وتسمى تلك الحملة وخطابها التاريخي ومنتوجها المكتوب ب(أدبيات وينغت)، واستغلت البعد الديني مفهوم التعصب والإكراه ونصرة الضعفاء وقضية الرق إلى جانب استغلال وينغت للمجتمع المعادي للرق والصحافة والجمعيات العلمية، بل أن الحملة دفعت حكومة جلالة الملكة لحروب طويلة انتهت بكرري. استفاد وينغت من التجارب الشخصية والسير الذاتية والتقارير المخابراتية واستجوابات الأسربالأسرى في تنظيم حملة تستهدف الرأي العام البريطاني والغربي. تناولت أدبيات وينغت فترة الحكم الخديوي وما وقع فيها من مثالب لتشرح أسباب قيام المهدية واستعطفت الكنائس والقسيسين والصحفيين لتنفيذ هذا المخطط.

٣. كتابات المؤرخ ريتشارد ليزلي هل والمؤرخ بيتر. م. هولت وهما أكاديميين متخصصين في تاريخ السودان الحديث خصوصا فترة الحكم الخديوي..وتميزت كتابات هيل بالموضوعية والدقة والبحث الصارم في تقديري، حيث أصدر عددا من المؤلفات منها كتاب "سلاطين" و"تاريخ النقل في السودان" و"السودان الإنجليزيالإنجليزي المصري" و"معجم الشخصيات" وترجم "على تخوم العالم الإسلامي" وغيرها.أما الأستاذ بيتر هولت فقد كانت كتاباته تشابه في المنهجية وأصدر كتاب المهدية في السودان، وكذلك نيكول فيرغسون.

٤. أما أدبيات كتاب السير الذاتية والمذكرات الشخصية والمشاهدات من الغربيين وأغلبهم من الرحالة والإداريين والتجار. ويمكن القول إن أعمال هذه الطائفة من الكتاب شابتها العديد من النواقص حيث أن هولاء في الغالب هم المسئولون عن الانطباع الغربي تجاه السودان حيث نقلوا تجاربهم ومغامراتهم ومعاناتهم الشخصية

سواء في أعمالهم أو ترحالهم، أو فيما شاهدوه بأعينهم من الحياة الاجتماعية. ويُلاحظ أن رواد هذه الفئة استخدموا الأساليب الأدبية والإثارة والتشويق لأجل الشهرة أو تحقيق أعلى المبيعات. كما أن الاتجاه السائد فيها أن أغلب كتاب هذه الفئة حاولوا أن يدقوا إسفين الفرقة بين المصريين والسودانيين ويحملوا مصر مسئولية الحكم الخديوي.. بينما كانت مصر نفسها محتلة وتُدار بواسطة أجانب أغرقوها في الديون وحطوا من قدرها، ونفس المحتلين فعلوا الأعاجيب في السودان.. وكان الغرض من توجيه اتهام كهذا لمصر هو محاولة الانفراد بالسودان واستعماره بواسطة القوى الأوروبيةالأوروبية لكن حادثة فشودة والصراع الفرنسي البريطاني في قضية قنصلية دافوس وأزمة فشودة اضطر فيه الإنجليز لاستغلال اسم مصر مرة أخرى. ويصف اللورد كرومر في كتابه "مصر في السودان" بأن (الحكم التركي المصري هو أسوا انواع الحكم)، ويمضي كرومر ليزيد الفتنة بقوله (إن مصر غير قادة على حكم نفسها دعك عن بلد شاسع كالسودان).

٥. أما المؤرخ جورج شوستر فقد كتب يقول في معرض وصفه للحكم الخديوي ١٨٢٠-١٨٨٥م (أكثر قصص سوء الحكم في تاريخ الإنسان والإنسانية، يحوي سجل حافل بفساد موظفي الحكومة وتجار الرقيق والحروب المحلية وفوضى مدنية تامة). وهذا فيض من قيض.

المدرسة المصرية

تناول المؤرخون المصريون لتاريخ السودان الحديث فيما عُرف بالأدبيات التاريخية المسمأة (المسالة السودانية)، وتناولوا القضية من زواية أحقية مصر و سيادتها على السودان تاريخيا، فالمؤرخ المصري داؤود بركات يقول في كتابه (السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية) ما جاء نصا في مقدمته لكتابة (وليس القصد منها الاستفاضة في التاريخ والوقائع؛ بل بيان مساعي السياسة في السودان المصري بالاستناد إلى الوقائع التاريخية، وبيان حق مصر في السودان، وأن السودان جزء من مصر لا يتجزأ منها، وأن مصر لا تستطيع أن تعيش سياسيا وماديا دون السودان)[١٣١٣]

[١٣١٣] داؤد بركات،السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية، دار الهندواي، القاهرة،٢٠١٢م،ص٧.

هذا الزعم يتكرر كثيرا عند المؤرخين المصريين أن السودان تؤول سيادته لمصر بحق الفتح كما جاء في كتاب الدكتور محمد فؤاد شكري في مؤلفه "سيادة مصر علي السودان" والذي أُضطر للتراجع عن فكرته التي تكشف مدي تحيزه وتوهمه بأن السودان هو الحديقة الخلفية لمصر، بل ويذهب المؤرخين المصريين في الغالب إلى أن ما صُرف من دماء وأموال مصرية في السودان يمنحهم حق تملكه إلا أن المؤامرات البريطانية أخرجت مصر عن السودان، وعلى الرغم من إدراك و فهم المؤرخين المصريين لدولة محمد علي باشا الذي وصل لسدة الحكم في العام ١٨٠٥م وانتزع مصر من العثمانيين لنفسه بانقلاب بعد فترة هيجان وغليان في الشارع بعد خروج الفرنسيين في العام ١٨٠١م.

إذا تتبعنا كتابات المؤرخين نجد أن هناك سكوت بل ورضى عن سلوك دولة محمد علي باشا الذي سلط على الشعب المصري الأجانب هو وأحفاده،ورغم كل هذا تقوم النخبة المصرية _المؤرخين) بإنتاج خطاب يتبنى تلك الحقبة المظلمة في تاريخ مصر والسودان على السواء، فقد سام محمد علي باشا الفلاحين المصريين في الريف كل أسباب الهوان وفرض عليهم الضرائب الشخصية(الدقنية) واستخدمهم عمال سخرة في شق الترع والقنوات، وفرض عليهم التجنيد الإجباري للشباب فأُخذوا من قراهم إلى المعسكرات وضرب بيد من حديد النخبة المصرية من نقابة الأشراف والقيادات المجتمعية مثل عمر مكرم وغيره ونفى وسجن كل من نازعه في الملك الذي أورثه أحفاده.

استمر الخطاب المنتج من المؤرخين تحت إرهاب الدولة (الحكم الخديوي)،فكل من عأرض سياسة الباشا نُفي وشُنت غزوات باسم مصر (المحتلة) من قبل الباشوات الجدد الذين عاشوا في قصورهم في رفاهية وبذخ، وتركوا الشعب المصري يعاني ويدفع ثمن الغزوات الخارجية والمشاريع التي كان يقوم بها الباشا، وإذا راجعنا أدبيات التي تتحدث عن السودان في الخطاب المصري الحديث نجد أن فكرة تبعية السودان كانت مسيطرة على عقل النخبة التي كتبت هذا التاريخ بل تذهب إلى إلى أن تدعي ادعاءات خطيرة حول قضايا الرق والمياه والحكم.

يبرر المؤرخ سعد ميخائيل أن خزانة مصر أنفقت ٤٠٠ ألف جنيه في العام الواحد وهي نفقة جيش الاحتلال، ولما أرسلوا غوردون لإخلاء السودان فحصره الثوار أنفقوا هم من مالهم ومال مصر على حملة ولسلي لإنقاذه ١١مليون جنيه، ودفعت خزانة مصر من ديون غوردون إبان

حصاره ٩٩٦.٦٠ جنيها منها ٦٥٧٢٥٨جنيها للأجانب، ناهيك بجيش مصر الذي ذاب في السودان بعد تركه، ومتاجر المصريين وأموالهم وأملاكهم، والقلاع والحصون والمراكب الحربية والتجارية، ثم بعد ذلك نفقات استعادة السودان، وقد أربت على سبعة ملايين جنيه. كل هذا المال دفع في ١٦سنة اقتصادا لمئتي ألف جنيه تدفع في سنة أو سنتين، ولكنهم لم يريدوا الاقتصاد وإنما أرادوا فصل السودان ثم استعادته لأنفسهم لا لمصر.

الصراع حول المسالة السودانية كان على أشده بين مصر وبريطانيا فقد صرح اللورد بارمور باسم حكومته وقال (إن الحكومة البريطانية لن تترك السودان بأي حال كان)، فرد عليه الزعيم سعد زغلول في البرلمان المصري بقوله (الأمة المصرية لن تتنازل عن السودان ما حييت وما عاشت،وأن حقوق الأمم لا تضيع بمجرد ما قال الغاصب أريد أن اتمتع بها دون اصحابها)١٤،فمصر ترى نفسها صاحبة اليد في السودان ويرى المؤرخون المصريون أن بريطانيا تريد سلخ السودان منها والاستئثار به واحتلاله.

هذه هي العقدة أمام المنشار حيث وُضعت العديد من المؤلفات التي تحذر من السيطرة البريطانية على السودان في وقت احتلت بريطانيا مصر نفسها، ويشير المؤرخون البريطانيون إلى فساد الإدارة الخديوية في السودان وظلمها ويذهبوا للادعاء بأن استلام زمام الأمر في السودان لإعادة المدنية والأمن، وهكذا تترنح سفينة المسألة السودانية في الخطاب التاريخي المتناقض بين مصر وبريطانيا.

يذهب المؤرخ سعد ميخائيل في كتابه السودان (بين عهدين) إلى القول إن ما أنفقته مصر من أموال يجعلها تمتلكه وليس لأي دولة أخرى أن تتدخل وتفت سيادة مصر على السودان، فها هو سعد ميخائيل يذهب ويقول (أما القوات المصرية التي كانت في بلاد السودان حين قيام ثورة المهدي(١٨٨١-١٨٨٥م) فهي حسب الإحصاء الرسمي ١٩٥٠ عسكري في دنقلة و ٢١٧٠عسكري في بربر و ٧٤٨٠ عسكري في الخرطوم و ٢٣٥٠ عسكري في سنار و١٦١٠ عسكري في القلابات و ٨٠٠ عسكري في الجيرة و ٢٠٠عسكري في القضارف و ٣٩٤٠ عسكري في كسله و ٩٢٠ وفي كردوفان و ٤٨٦٣ عسكري في دارفور و ٨٨٦ عسكري في بحر الغزال و ٢٦٣١ عسكري في خط الاستواء، فجملة عدد الجيش المصري في السودان ٤٠٤٩٠ضابط

[١٤] سعد ميخائيل،السودان بين عهدين من اتفاقية ١٨٩٩م ومعاهدة ١٩٣٦م، المطبعة الخيرية،القاهرة،بدون تاريخ نشر،ص٤٠.

وعسكري، وفي خدمتها ١٢وابورا حربياً، وعدد المتطوعة مع الجيش نحو ٢٠ألفا، وعدد الموظفين المدنيين نحو ٣٠ألفا)[١٥]

يذهب الأمير عمر طوسون في كتاباته ومذكراته التي أصدرها للإنجليز في الكتب التي عاون مؤلفيها بالقول عن السودان بعد اتفاقية ١٨٩٩م الشهيرة باتفاقية الحكم الثنائي ليصور لنا رأي جمهور النخبة المصرية بقوله (فلو أن انجلترا كانت صادقة النية في احترام اتفاقية ١٨٩٩م،لكانت أرجعت السودان المصري إلى ما قبل ما كانت عليه الثورة المهدية،وأجازت تعيين وكيل مصري للحاكم العام يتبادل الحكم مع الحاكم العام لمدة خمس سنوات، ولاعطت المصريين حق المناصفة في الوظائف مع البريطانيين، ثم ساوت عدد جنود مصر بالإنجليز)[١٦]

يبدو أن إدراك المؤرخين المصريين المنتقدين لسلوك الإنجليز السياسي في فترة الحكم البريطاني المباشر من العام ١٨٩٩م يجعلهم يغفلون عن حقائق مهمة منها أن مصر مستعمرة بريطانية من العام ١٨٨٢م، وأن الخديوي توفيق الذي عاصر أحداث المهدية كان مجرد ألعوبة في يد اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر بل حاكمها الفعلي.

رئاسة النظارة (مجلس الوزراء) كانت محل تأرجح فيكلف شريف باشا وهو رجل وطني غيور ويأمر الإنجليز بما يوافق مصالحهم فيرفض طلبهم فيهدد اللورد كرومر مجلس النظار والخديوي فيجبر شريف علي تقديم استقالته،وسرعان ما يظهر رجل الغرب والمدلل نوبار باشا الذي ينفذ المطلوب منه بدقة لصالح الاحتلال البريطاني، وتحضرني حادثتان مفصليتان هما (أمر إخلاء السودان) و(اتفاقية ١٨٩٩م الحكم الثنائي)، ومرر نوبار هذه الأوامر وذلك بعد تهديد المعتمد البريطاني كرومر وذهاب شريف باشا مغاضبا ففي الواقعتين المشار لهما كانت مصر المُستعمرة بلا حيلة لعجز حكامها و يذهب بعض المؤرخين المصريين لاتهام السودانيون بأنهم تعاونوا مع الانجليز فوقعوا الاحتلال فكيف يستقيم ذلك ،أن يبرر مؤرخ فشل النخب الحاكمة ويعلق هذا الفشل علي المؤامرة التي لم توجد الا في خياله.

---

[١٥] داؤد بركات،السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية، دار الهندواي، القاهرة،٢٠١٢م،ص ص١٤-١٥

[١٦] سعد ميخائيل، السودان بين عهدين اتفاقية ١٨٩٩م ومعاهدة ١٩٣٦م،المطبعة الخيرية،القاهرة،بدون تاريخ نشر،ص ص٣٦-٣٧.

فالمؤرخ المصري يجد نفسه في حيرة فهو يكتب عن حكم محمد علي واحفاده(١٨٠٥-١٩٥٢م) ويدرك حجم المأسي وتمكين الأجانب وإغراق مصر في الديون وتوريطها في حروب توسعية سيق لها الفلاحين (قسراً) أو مشاريع تنموية سيق لها المواطن (سخرة).

بعد كل هذا ينبري نفر منهم في المدح للذات العلوية وباني نهضة مصر الذي أُقتلع ما أسس له بثورة ١٩٥٢، ولكن حجم المحنة أكبر حينما تطالع منتوج الخطاب التاريخي الذي يتحدث عن السودان، فهاهو المؤرخ السوداني محمد عبد الرحيم يشير في كتابه (النداء في دفع الافتراء) ما جاء نصه كالآتي (أهداني سمو الأميرالأمير عمر طوسون في أكتوبر ١٩٣٤م خمسة عشر نسخة من كتاب وضعه حامد أفندي القرصناوي)[١٧] الذي أخفى اسمه تحت اسم (محزون) ومؤلفه بعنوان (ضحايا مصر في السودان).

يقدم هذا المحزون القرصناوي في كتابه هذا مبررات غريبة أن مصر قادت جيوشاً احتلت السودان، والصحيح أن الجيوش التي أرسلها محمد علي من مختلف الجنسيات والسحنات، وليسوا كلهم مصريون، وأن هولاء الجنود قتلوا في السودان إبان حوادث المهدية، وينسى مؤرخنا المحزون أعداد السودانيين الذين أُرتكبت في حقهم جرائم ضد الإنسانالإنسانية ناهيك عن غزاة يستحقوا أن يقاوموا.

يكرر الكتاب أيضا ما ظل المؤرخين المصريين يرددونه أن مصر قد خدعها الإنجليز وخدعوا السودانيون واحتلوه وانفردوا بحكمه، وتلك فرية أخرىأخرى يجدر بنا أن نقف عليها فقد سودت صحائف الكتب بها، فمصر والسودان كانا واقعين تحت خطوط التنافس الاستعماري الذي انتهى باحتلال مصر ثم السودان، وكانت بريطانيا تستخدم اسم مصر (تقية) لأن الوضع القانوني الدولي للسودان شاذ، خصوصا بعد حادثة فشودة والتصادم مع فرنسا.

المؤامرة في نظر المؤرخين المصريين

يذهب المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي في معرض حديثه عن المؤامرات البريطانية على السودان بقوله إن احتلال مصر كان النكبة فقد (تمكنت بريطانيا بدهائها وغدرها من إرساخ قدمها في البلاد، وأخلفت وعودها وعهودها في الجلاء عنها، وأكرهت حكومتها تحت ضغط

[١٧] محمد عبد الرحيم، النداء في دفع الافتراء،بدون دار نشر،ص٥٩.

الاحتلال العسكري إلى إخلاء السودان، تمهيدا لاسترداده واتخاذه فيما بعد مستعمرة بريطانية)[١٨].

لما جاءت حملة كتشنر واثناء التحضير يحذر محمود طلعت في كتابه (غرائب الزمان في فتح السودان) بقوله إن الإنجليز يريدون سلخ السودان، وأن الحملة يجب أن يقودها ضابط مصري وليس إنجليزي، وينسى المؤرخ أن مصر نفسها كانت منتقصة السيادة ولا يستطيع الخديوي توفيق أن يعأرض المندوب السامي في قرار، على الرغم من محاولات شريف باشا المستميتة في رفض القرارات الإنجليزية والتي انتهت بعزله من رئاسة الوزارة وتوقيع اتفاقية العام ١٨٩٩م.

المدرسة التاريخية السودانية (المؤرخين السودانيين)

تهدف هذه التأملات إلى دراسة التاريخ الفعلي لنشوء الدولة والمجتمع السوداني التي ساهمت في تأسيس هذا الكيان البشري والإنساني (السودان) الذي ظهر في فجر التاريخ بهذا الاسم في إقليم واسع، ولكنها تخصص النظر في الخطاب التاريخي فيما عرف بجمهورية السودان الحالية،وتناقش تاريخه وتعمل على الرجوع إلى المصادر التي تحدثت عن تاريخ السودان القديم والوسيط والحديث بجانب المرويات الشفاهية والحفريات والصور والوثائق والمخطوطات والكتب وكل ما يتوافر من مصادر للتاريخ السوداني.

فالمدرسة التاريخية السودانية كانت قد ظهرت مع بروز الحركة الوطنية التي بدأت بين البرجوازية التجارية في المدن وطلائعها من المثقفين، واتجهت في بداياتها نحو تجميع التراث حتى يساعد في شحذ الشعور القومي،ولكنها ظلت اجتهادات شخصية ومبادرات متفرقة[١٩].

ولعل المؤرخ الدكتور محمد سعيد القدال كان قد أجرى دراسة في المنتوج التاريخي المكتوب عن شخصية (غردون باشا) فوجد أكثر من ٤٥ كتاب ورسالة بمكتبة جامعة الخرطوم وحدها، وعندما بحث عن المنتوج المكتوب عن (المهدي) لم يجد دراسة واحدة مما دعاه لكتابة المهدي لوحة لثائر فهل يمكننا الادعاء بأن الآخر -أيا كان- قد كتب تاريخه وخلد أبطاله أيا كانت وجهة نظرنا فيه، وهل هذا يدعونا لعقد المقارنات وادعاء أن هناك حالة من الإعجاب بالأجنبي جزءا من عقدة العقل الجمعي السوداني.

فالمدرسة التاريخية التقليدية السودانية التي حفظت جزءا من التراث الوطني بدأت بمحاولات خجولة في التدوين التاريخي، أو قُل مرت بأزمات، فالمهدية اتلفت تراث الفونج والخديوية لأنها

[١٨١٨] عبد الرحمن الرافعي، مصر والسودان في أوائل العهد الاستعماري، ط٤،دار المعارف،القاهرة،١٩٨٣،ص١٣،مقدمة الطبعة الثانية.

[١٩] د. محمد سعيد القدال، الانتماء والاغتراب دراسات ومقالات في تاريخ السودان الحديث،دار الجيل بيروت،لبنان١٩٩٢م،ص١٦.

اعتبرت أن المهدية ناسخة لما قبلها،وبرزت في المهدية محاولات إسماعيل عبد القادر الكردفاني وغيره، ولكن لم يلبث المؤرخ الأزهري هذا أن زُج به في غياهب السجون والمنافي فكان عمله اجتهادا شخصيا ليس إلا، وجاءت مجموعة المؤرخين وكتاب السير في في مطلع الحكم البريطاني الذي كان يعسف بأي محاولات كتابية تمس سمعة المشروع الاستعماري سواء من كتاب السير أو التاريخ أو حتى الصحف السيارة.

على الرغم من الإنتاج الكثيف لمحمد عبد الرحيم إلا أن الدكتور محمد سعيد القدال يرى أنه من المؤرخين التقليديين ومعه الأستاذ عرفات محمد عبد الله محرر جريدة الفجر،ولعل اتجاه الدكتور القدال يذهب ليضم مؤرخين آخرين معهم مثل كاتب الشونة وود ضيف الله، والمعيار الذي قاس به هو أن هولاء المؤرخين لم يمتلكوا المنهج العلمي بل ذهبوا إلى حشد المعلومات التاريخية ولم يعملوا فيها النظر أو نقدها علي أساس علمي، وهذا لا يقدح في أعمالهم بل نوعاً من التصنيف العلمي للمؤرخين السودانيين.

غير أن هنالك من السودانيين من عد محمد عبد الرحيم مؤرخا هاويا لم يتلق أي تدريب على الطرق الحديثة في البحث التاريخي منهم البروفسير محمد سعيد القدال، بينما عده الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم واحدا من (النواقل)، أو رواة القصص والأحداث التاريخية عن عصره وما سبقه. أما الدكتور عبد الله علي إبراهيم فقد عده ببساطة (مؤرخ هاو علم نفسه بنفسه)[٢٠]، في اعتقادي أن ماذهب اليه استاذنا القدال والدكتور عبد الله علي ابراهيم قد جانب الصواب فقد أرخ محمد عبد الرحيم لفترة كشاهد عيان واستقصي عن ما وصله من معلومات وكانت مخطوطة ابطال السودان والنداء في دفع الافتراء من اجود ما دون عن ذلك التاريخ..

في فترة الحكم البريطاني تم التأسيس لمدرسة فكريةجديدة تقوم على عدم القدح في أعمال الاستعمار وإبراز صورة جديدة للمجتمع السوداني،فقد جرت عملية وضع المناهج وبناء الصورة الكلية التاريخية التي تلاعبت بها مؤسسات التعليم النظامي في بخت الرضا وكلية غردون، وصحيح إنها انتجت منهجية وخرّجت أجيالا لكنها اتبعت سياسة المسكوت عنه وتعميق الفجوات التاريخية، وذلك من الإشارة إليها دون الخوض في أحداثها، و كذلك عمل الخطاب التاريخي الاستعماري إلى تعزيز القضايا التي انتجت الخلافات في المستقبل.

صوّب البروفسور محمد سعيد القدال نقد وذهب بقوله عن أعمال نقد التاريخ ومنتوجه المكتوب بقوله (فالنقد عندنا ضعيف إن لم يكن معدوماً اصلاً، ففي المجتمع القبلي شبه

---

[20] حامد الهاشمي ترجمة مقال بعنوان حياة وكتابات مؤرخ سوداني محمد عبد الرحيم ١٨٧٨- ١٩٦٦م، نشر بتاريخ ٢٤ سبتمبر ٢٠١٦م https://www.alrakoba.net/709372/بدر الدين،

الرعوي وفي المجتمع الأكاديمي العائلي يضعف النقد أمام تلك الروابط، ويفهم النقد فهماً ذاتياً بحتاً فهو إما تحامل أو هدم أو تقليل من شأن الآخرين، وقليلا ما يؤخذ على أنه تعامل جدلي فكري من به قدماً)[٢١] للمنهجية والإيديولوجية عند المؤرخين السودانيون.

هنا يجب على المشتغل بالتاريخ والتدوين يمثل نقطة الدفاع الاولي لقيم الأمة وعدم الوقوع في (المطبات) التي صُممت بعناية في فترة الحكم البريطاني، فيجب أن لا نفرق بين عملية وضع المناهج التعليمية وإعادة كتابة التاريخ، فلا يصح إلا أن نقوم بالمراجعات العلمية الدقيقة، لا أن نشطب حقبة زمنية لاختلافنا معها،بالتالي على المؤرخ يصحح المعلومات التاريخية بعناية ويُعمل أدواته المعرفية،وينذر من تكرار حدث ما يمكن أن يشكل أزمة أو كارثة.

فيجب علي المؤرخ الجاد أن يبتعد عن الجهويات والمناطقية والعنصريات لأن من يكتب في هذا المجال مهمته التنوير وتقديم مادة متكاملة إذا امكن له ذلك، وهي واحدة من مطلوبات العمل العلمي الحديث.ولعل من المشاهد أننا السودانيون كثيرو التشاكس حول تاريخنا لأننا ندمن الشفاهة ونُقل من التدوين لذلك تضيع أغلب سرديات التاريخ في الحكي ويحدث جدل كثيف حول مواقف الأطراف المتباينة.

لعل العمل الجيد الذي قدمه البروفسير أحمد إبراهيم أبو شوك في بحوثه القيمة المؤلفة من عدة أجزاء (السلطة والتراث) هو ضرب من العمل التدويني باستخدام مناهج التحليل الحديثة ومساهمات أبوشوك قد تطرقت إلى (الاستراتيجية العسكرية للمهدية)٢٢، وقدم شرحاً في مقالاته في هذا المؤلف للزوايا التي يحتاجها الباحث، وفي ذلك خروج عن المألوف القائم على النقل والسرد للأحداثللأحداث دونما إعمال الفكر فيها،وخلصت ندوة أُقيمت في العام ٢٠١٨م ندوة حول مناهج المؤرخين السودانيين في كتابة التاريخ بمعرض الخرطوم الدولي والتي شارك فيها عدد من المشتغلين بالتاريخ على رأسهم السفير حسن عابدين والأستاذ غسان علي عثمان، وخلصت إلى أنه اتفاق مقدمي الأوراق مع الطرح الذي يذهب إلى إنه (ليس من المجدي إعادة كتابة التاريخ، ولكننا مع إعادة التحقيق والتحليل والمسائلة والانتباه لماهية وفلسفة التاريخ)[٢٣].

في الخطاب التاريخي السوداني

[٢١] محمد سعيد القدال، الانتماء والاغتراب،مرجع سبق ذكره،ص٢٢١.

[٢٢] أحمد إبراهيم أبو شوك، السلطة والتراث،ج٥، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، أم درمان، السودان،٢٠١٥م

[23] https://al-ain.com/article/khartoum-international-book-fair / ندوة حول مناهج المؤرخين السودانيين في كتابة التاريخ بـ"الخرطوم للكتاب العين الإخبارية - محمد الطيب، لثلاثاء ٣٠/١٠/٢٠١٨ ٠١:٣٤ ص بتوقيت أبوظبي

لا يزال الخطاب السوداني التاريخي السوداني مليئا بالفجوات المعرفية التي يحار إزائها العقل المنتج، وتستمر هذه الفجوات لفترات طويلة، ولم يستطع المؤرخين فك طلاسم تلك الفجوات، وأصبحت من المسكوت عنه جهلاً بأحداثها لا رغبة في الصمت عن التطرق لأحداثها التاريخية،وقد يكون مرد هذا الأمر إلى أننا أمة تدمن الشفاهة و(الحكي) كما قال مخرج سوري عمل في السودان لصديق عزيز متعجبا من ضعف الدراما والحركة المسرحية في السودان لكنه بعد إقامة اكتشف ما أدهشه فقال (عرفت السبب كل الشعوب الدراما بتوعها في الخشبة أو الشاشة لكن انتو حياتكم كلها دراما).
لا يزال في بلد كانت مساحته يوما ما مليون ميل مربع هناك جدال كثيف حول مسائل الهوية والانتماء في كل المجالات من لدن الأدباء إلى والساسة والمؤرخين والاثنوغرافيين، فنحن لانزال نتشاكس في هويات الحضارات السودانية المروية والكوشية وما بعدها هل هي إفريقية أم عربية أم نوبية، أدبياً تشكلت مدارس شعرية ونقدية وهي(العروبية والإفريقانية والغابة والصحراء) وكما ظهرت مدارس في التشكيل والرواية وكلها تعبر عن الحالة السودانوية.

الفجوات أو التواريخ المجهولة

كما أن المؤرخ مطلوب منه العمل لسد الفجوات المعرفية في السرديات والقصص التاريخية الناقصة أو المبتورة من خلال قدرته على استنباط الحقائق واستجلائها من النقوش والعظام والحفريات والمباني والأدوات التي تكمل المشهد البحثي، وتدعم عمل المؤرخ بالأدلة المميزة ويمكن أن يخرج بفرضيات.

كما على المؤرخ أن يعمل على الاطلاع علي كل ما دُون في التاريخ وأن امكن في العلوم الأخرى لأن التاريخ يتحدث عن حياة شعوب مضت بالتالي مجتمعات لها معارفها وأعمالها وقيمها ودفعها الحضاري، كما على المؤرخ أن يستصحب أن النظم السياسية سواء كانت عشائرية أو في إمارة أو سلطنة أو مملكة أو دولة ما لا يمكن الحكم عليها بأن نظامها صالح كله ولا فاسد كله. بالتالي هناك نسب يمكن أن يقترب فيها الحاكم من النجاح أو الفشل،بالتالي المؤرخ لا يجب أن ينظر بعين السياسي الذي يمكن أن يحاكم الأحداث بنظرية (من ليس معنا فهو ضدنا) أو الكيميائي الذي يقيس الأمور بمعادلات علمية صارمة لأن مهمة المؤرخ أن يقرر في شأن حياة أو سيرة زعيم أو أمة وبالتالي لا يمكن رصد قواعد جامدة لحركة الشعوب وتقييدها بمعادلات لاعتبارات إنسانية واجتماعية واقتصادية أو عقائدية يمكن أن تفسر مواقف الإنسانالإنسان عموماً.

لعل ملاحظة الدكتور جاي سبولدنق في دراساته السنارية ومراجعاته للمنتوج الكتابي والثقافي تدلنا على الإطار الجامع لحالة التدوين عند بعض المؤرخين لأن التاريخ السوداني مليء بالفجوات المعرفية فتراه يذهب لتفسير تلك الحالة بإشارته المهمة التي جاء فيها (وقد يرى المؤرخ الحديث الذي يرغب في الاستفادة من مناهج العلوم الاجتماعية أن المنظور ذو التوجه البنيوي لا يعني بالضرورة إلغاء منهج منظور الأحداث ولكنه الخيار الوحيد المتاح في بعض الأحيان. قصارى القول ليس الكاتب مغرماً بالتاريخ البنيوي ولكنه مضطراً لاستخدامه اضطراراً)[٢٤].

يفيدنا جاي سبولدنق الذي اقتحم عصر البطولة من الوثائق والمخطوطات والحفريات والمرويات الشفاهية وأعمال المؤرخين وغيرها من المصادر والمراجع بأن عملية تجسير الهوة أو الفترات المظلمة التي لم يسلط عليها الضوء أمر من الصعوبة بمكان ويتطلب حساً معرفياً عاليا ومراجعة للفلكلور والتراث الشفاهي والعادات والتقاليد وفهم منظومة القيم الاجتماعية. إضافة إلى الوقوف على الروايات الشفاهية للوصول إلى مقاربات تمكن المؤرخ من استجلاء الغامض في التاريخ، فكثير من العادات والتقاليد لا تزال حية كما أن هناك ما يورث من قصص لكنها تحتاج للعين الفاصحة والعقل المفكر الذي يستطيع إدراك التاريخ، فالأغنية الشعبية والأمثال والقصص تروي جانباً يمكن الأخذ به لكن بحذر وبعد عقد المقارنات التي يمكن أن يكون مرجعا علميا أو مصدرا من مصادر التاريخ أشارت إليه.

التفسير الإيديولوجي للتاريخ في أدلجة الخطاب التاريخي

حاول كارل ماركس أن يقدم تفسيرا ماديا للتاريخ وطرح سؤالا مهما كيف يصنع التاريخ لقد فهم ماركس "التاريخ" على أنَّه شيء يصنع صُنْعاً، ويُخْلَق خَلْقاً؛ ولكن ليس من "العدم (التاريخي."(إنَّ البشر هم الذين يصنعون "تاريخهم"؛ وبـ "أيديهم" يصنعونه. أجل بـ "أيديهم"؛ ولكن ليس على (أو حسب) هواهم، وقد قدم هذا التفسير الإيديولوجي المادي للتاريخ رؤية للأحداثللأحداث في حد ذاتها تختلف عن التفسير التقليدي القائم على أدوات ومناهج التفكير الدينية أو التقليدية، وكان الصراع بين تفسير التاريخ في السودان على أسس منهجية أو معرفية متباينة، فخُذ المثال الأبرز في تاريخ مملكة تقلي، فيذهب بعض المؤرخين إلى وصفها بدولة المسيد أو مملكة العشيرة أو المملكة ذات الوظيفة الدعوية التي اعتبرت الملاذ للدعاة المتصوفة في كل السودان إبان فترة العسف الخديوي ١٨٢١/١٨٨٥م.

[٢٤] جاي سبولدنق،عصر البطولة في سنار،ترجمة أحمد المعتصم الشيخ،كتاب الخرطوم الجديد،الإصدارة الخامسة،هيئة الخرطوم للنشر،الخرطوم،٢٠١١م،ص١٧.

فكثيرا ما يبدو أن التاريخ مفارق لقوانين العقل، ولقوانين المادة كما لو أنه في بعضه نوعاً من الإعجاز الذي يتجاوز الطبيعة مثل عملية بناء الأهرام وأسرار التحنيط وغيرها من القضايا التي تتطلب تفسيراً علمياً أو معرفيا، نحن لا نقرأ التاريخ لنعيد إنتاج التاريخ، بل نقرأ التاريخ من أجل فهم قوانين التاريخ الأزلية التي تتحكم في مسيرته سلبا وإيجابا.[٢٥].

في السودان ما يمكن ملاحظته أن عددا من المشتغلين بالتاريخ يفسر بعضهم الأحداث من زوايا إيديولوجية سواء كانت هذه الافكار (يسار أو يمين أو وسطية) وذلك لتحقيق مأرب لا يمت للعملية العلمية بصلة، فهذا العمل نوعا من الإضرار بالفكر التاريخي ومحاولة تجيير كل حدث لصالح حزب أو جماعة سياسية، فحتى ثورة ١٩٢٤م لم تخرج من دائرة التفسير الإيديولوجي إذ ذهب بعض الدعاة إلى أن ملامح الثورة في ذلك الزمن تعود جذورها إلى الفكر الاشتراكي، حيث أن الثورة اهتمت بالجنود والضباط والعمال وكانت نواتها جمعية القبائل السودانية ثم جمعية الاتحاد السوداني.

كما أن أعمال إسماعيل عبد القادر الكردفاني في مؤلفيه (الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش) وكتابه (سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي) تقع في دائرة التفسير لحوداث المهدية من وجهة نظر دينية تقليدية أو قُل إيديولوجية، وقد استفاد المؤرخ من أدوات التحقق وجمع المعلومات التي عكف عليها الفقهاء في تدوين السيرة النبوية والأحاديث والتاريخ الإسلامي، ومرد ذلك أن ثقافة المؤرخ وبيئته تفرضان عليه أدوات عمله سواء أكانت مادية أوأم دينية أم علمية بحتة.

الخطاب التاريخي السوداني في السوشيال ميديا

لعل المتناول بعيدا عن العمل الأكاديمي الكتابي عند قطاع عريض من الشباب المهتمين بالتاريخ يعوزه المنطق، فحينما تطالع السوشيال ميديا تلاحظ تنامي خطاب الكراهية والجهوية والعنصرية،إذ أن أغلب الكتابات تحمل رؤى تدافع عن إثنية أو شخصية تاريخية بحكم الانتماء لنفس القبيلة، ومرد ذلك أن هناك تنامي لظاهرة التفكير الرعوي غير المنضط بالخطاب الوطني، ويتم ستخدام المادة التاريخية دون تروٍ، ومرد ذلك أن السوشيال ميديا أتاحت مساحات كبيرة للتعبير على خلاف فترة ما قبل السوشيال ميديا والانفجار المعرفي، فكان عصر المطبعة ضابطاً للخطاب التاريخي مع قليل من التجاوزات إن وجدت.

---

[25] https://www.alriyadh.com/833556 الخميس ٢٩ جمادى الاخرة ١٤٣٤ هـ - ٩ مايو ٢٠١٣م - العدد، ١٦٣٩٠
واقعية التفسير المادي للتاريخ **محمد بن على المحمود**

فاقتحام علم التاريخ والتدوين بدوافع كهذه أضر كثيراً بالخطاب التاريخي الذي وُظف لخدمة أهداف صراعية بحتة، ولا أطالب بالتوقف فهناك محاولات جيدة إلا أن المتابع لما يُنشر في الوسائط المفتوحة يدرك حجم الخراب في اللحمة الوطنية والاجتماعية.

فالمطلوب هو ضبط الخطاب وتعزيز حالة التماسك الوطني بدلاً من أن يقود ذلك لحالة من التفكك بل في بعض الاحيان يكون مهدداً للسلم والأمن الاجتماعي فكثير من الصراعات تتم تغذيتها من الوسائط المفتوحة، والتي من المفترض أنها وسائط للتواصل الاجتماعي ساحة لحروب جهوية ومناطقية وقبلية،ومرجع ذلك أن بعض الشباب يأخذ من المراجع والمصادر ما يدعم وجهة نظره التي يريد نشرها دون أن يكلف نفسه قراءة المشهد التاريخي بصورة شاملة ويدرس الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي وقع فيها الحدث التاريخي.

من المعيب أن تتم قراءة الحدث خارج سياقه التاريخي ومعرفة الدوافع والقيم الاجتماعية والمؤثرات الداخلية والخارجية وشكل المجتمع،لانه إذا تمت قراءة متعجلة للأحداث فإنها تسهم في بروز (الأزمات المجمدة) مما يمكن أن يسهم في زيادة حالة الكراهية والتباعد الاجتماعي.

ما يرسمه المؤرخ

في المنهجية التاريخية تظهر لنا نظريات عديدة في تفسير الحوادث ويحتاج المؤرخ للتعامل بمنهج موحد ليرسم صورة عن المجتمعات التي يدرس تاريخها لمعرفة وفهم حجم التفاعلات على المستوى الداخلي للمجتمعات من نوع السلطة وعلاقة السلطة بالمواطن وطرق الإدارة والتقسيمات الجغرافية. إضافة للأحوال الاقتصادية والحالة الحربية في تلك المناطق وعلاقة الممالك أو الدول بجيرانها سلماً وحرباً لاستقراء واستنباط الصورة الكلية للحقبة التاريخية في الفترة المراد بحثها عملياً.

فمثلاً دراسة طرق امتلاك وحيازة الأراضي توضح للقاري ماهية القوة الاجتماعية التي سيطرت (ملوك وسلاطين،قبائل أو تحالفات) والحيازة عن الحروب والغزو والتوسع أم الشراء أو المنحة أو استكشاف الأراضي غير المجهولة واستخدامات الاراضي فيمكن من خلال دراسة الأراضي قياس حجم التفاعلات الاجتماعية والسياسية والعسكرية في فترة محددة من تاريخ الأمم.

فالنموذج في تاريخ السودان يؤكد أن حالات الحروبات والغزو والمنح للحواكير من السلاطين أو استحواذ الأراضي لجماعة دينية أو قبيلة أو لمكانة شخصية ترسم لنا جزءا من الفجوات التي نريد فك غموضها، وهذا مثال واحد يمكن الاستعانة به مع توافر الأمثلة في التاريخ السوداني الحديث والقديم.

قد يقول قائل إن الفجوات لم تعالج في العصور السابقة ولا حتى في الراهن القريب فكثير من الأزمات ظلت لغزاً أو تكتم عليها، وانمحت الأدلة التي تشير اليها، وفي هذا أشير إلى حالة

التجاذب في الوصول للحقائق التي تضيع بين مؤيد متعصب وناكر متشدد فهاهي أحداث اعتصام القيادة العامة في العام ٢٠١٩م لا تزال لغزاً، ولم يصدر تقرير رسمي يحمل طرفاً المسئولية ناهيك عن حوادث كثيرة وكبيرة في تاريخ السودان، ولم يفتح على اللجنة التي كُونت لمعرفة الملابسات أن توجه تهمة أو حتى تخرج بتقرير واضح على الرغم من أن هناك عدد كبير من الأدلة والصور و(الفيديوهات) التي توثق للأحداث للأحداث.

المؤرخ الناقد ام الناقد المؤرخ

غير أن الانعطافَ الأهمّ في تاريخِ (الفكر التاريخي) هو توحد الناقد والمُؤرخ في شخصٍ واحد، وفي إهاب وحيد، فلم يعد المؤرّخ جمّاعة للنصوص من غير تمحيصٍ، ولا ناقلا للأخبار من غير تدقيقٍ، ولا ساردا للحوادث والكوائنِ من غير نقد وتزييف، بل أضحى المُؤرخ الناقدَ الأول لأخبارهِ، والفاحص الأول لمصادرهِ وموارده، والمتأمّل الأول في سرودِه ونصوصهِ[٢٦].

الكتابة في التاريخ ليست حشدا للمعلومات من مصادرها فحسب، بل هي منهجية للتحليل والتقويم واستشراف المستقبل .فقراءة التاريخ تتطلب امتلاك أدوات معرفية ومنهجية علمية وحيادية وأمانة في طرح أحداثه و في الطرق والتحليل، فحدث عابر في التاريخ يمكن أن يتكرر في أزمنة مختلفة مع وجوه مختلفة وفي سياقات مختلفة،ولكن يبقى الملمح العام متكرر، فدراسة التاريخ لأخذ العبر والخروج بمعطيات لفهم الراهن المعقد من خلال الماضي الأكثر تعقيداً.

يذهب الباحث السوداني عثمان محمد عثمان بقوله (ويأتي ذلك بغرض فتح المجال للتعامل مع المشكلات في مجتمعنا على نحو جديد وبافتراضات جديدة، ونؤكد هنا ليس فقط على أهمية هذا المنحى المهمل في الخطاب السوداني بل أيضا إعطائه الأولوية إذا أردنا النهوض والتطور، فمعرفة الذات خطوة مهمة لتطويرها ولصناعة التاريخ. ليس صعبا أن تجد الأسئلة الأساس في مجتمعنا مغيبة بسبب الانغماس في نمط الحياة الوجودية، وأُستعيض عنها بأسئلة لا تقدم إجاباتها أكثر من التلقين وحشو الذهن باليقين المطلق ولا تتبرأ تلك الإجابات من إيديولوجيا، أو مصلحة سياسية أو اجتماعية وغيرها. تناقل ذلك عبر الأجيال ومع تقادم الزمن يوصل تفاعلات إلى أحداث الذروة، وقد تتفجر الأسئلة داخل الذات فتهزها هزا عنيفا، وتوقظ الوعي بضرورة الخروج عن الوحل الثقافي الغارقة فيه الذات)[٢٧]

---

[26] https://banassa.com/orbites/95890.html نقدُ العقلِ التاريخيّ: قراءةٌ في كتابِ "التاريخ والمؤرخون في المغرب المعاصر" ، د. عبد السلام المنصوري آخر دخول الجمعة ١٦ يوليو ٢٠٢١ – ٥:٤٠ م

[٢٧] https://www.researchgate.net/publication/339217141_mqarbat_fy_nqd_alql_altarykhy_althqaft_alswdanyt_ مقاربات في نقد العقل التاريخي.. الثقافة السودانية أنموذجا/عثمان حسن عثمان

فالحالة المتقلبة للسودان في تاريخه الطويل تعجز الباحث عن الخروج بمسلمات فالنظم السياسية بشكلها التاريخي وطرق تداول السلطة والتحولات الدينية (وثنية مسيحية إلى الإسلام) وتنوع مصادر الفكر السوداني وتوجهات السلطة وطرق إدارة الدولة في مختلف عصورها أوجدت نوعاً من التحولات التي لا تمكننا من إطلاق التوصيفات العلمية على الحالة السودانية.

فحالة التشابك والاختلاف قديمة، ويقول الشاطر البصيلي عبد الجليل (بينما نجد أن الذي كتب عن السودان في مختلف نواحي نشاطه كثير وكثيراً جداً لا يحصره العدد،فإن المصادر الأولية لتاريخ السودان الإسلامي بالذات قليلة جداً، وما وجد منها تتضارب رواياته، ولهذا اختلط الأمر على بعض الكتاب فوقع منهم من وقع في خطأ مقصود أو غير مقصود بسبب غموض العبارات الواردة في تلك الروايات،الأمر الذي جعل أولئك الكتاب يحاولون تفسيرها بالصورة التي بنيت عليها دراساتهم وبرزت في كتاباتهم)[٢٨]، فحالة الغموض والفجوات المعرفية في تاريخ السودان أشكلت علي المؤرخين مما جعلهم يذهبون إلى دراسة العوامل الداخلية للمجتمعات السودانية لكي يخرجوا بتصورات تاريخية، ويمضي الشاطر البصيلي فيقول (اعتبر الكتاب التطورات المحلية وحدة قائمة بذاتها والحقيقة كما أوضحنا في البحث أن الأحداث المحلية كانت نتاج تفاعلات مشتركة عناصرها منها ما هو محلي وما هو من الأقطار المجاورة بخاصة مصر وإثيوبيا)[٢٩]

الحنين الزائف النستالوجيا السودانية

الواقع أن السودانيون اليوم أكثر حاجة الحوار مع تراثهم وإعادة التأمل في تاريخهم، لا تفكيك التراث والتاريخ ودولتهم عليه تبرز أهمية التعاون على تجاوز مرارات الماضي واستشعار ما يمكن أن يجمع خطابهم الراهن وخطورة تفكيك التراث واللحمة الوطنية تبدو ماثلة للعيان، وما تجربة ذهاب جنوب السودان يمكن أن تتكرر مع إقاليم أخرى أو تدخل البلاد في حالة الصراع ويرجعها إلى مربع الحرب الأهلية، ولذلك تطلب الأمر تدارك مواطن الخلل والتي يمكن تلخيصها في قضايا قديمة متجدده أو متبدية كالرق وحجب مجموعات عرقية من السلطة واختلالات التنمية علاوة على أن مذاهب التفكير الغربية حيث تهيمن مفاهيم (الكنكشة) وعدم قبول الآخر وهي نوعا من الاستعلاء من الحقيقي.

لا أعتقد أن هناك امة أكثر حنيناً للماضي (النوستالجيا) أكثر من السودانيون فتاريخنا الحديث على الرغم من دورات الحروب والعنف والجفاف والتسلط إلا أنه الأكثر إشراقاً من

---

[٢٨] الشاطر البصيلي عبد الجليل،معالم تاريخ سودان وادي النيل من القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر الميلادي،مكتبة الشريف الأكاديمية للنشر والتوزيع،الخرطوم،٢٠٠٩م،ص١٤.

[٢٩] نفس المرجع السابق،ص١٤.

واقعنا الراهن المعيش. هكذا تجد حالة الحنين في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتي الثقافية والفنية وغيرها، وهذا الضرب من التفكير يدعوني للتأمل كلما ذكر اسم (الزمن الجميل) والذي هو في اعتقادي ضربا من الحنين المعيق لتطور امتنا لذلك عكفت على تفكيك مفاهيمه من خلال دراسة الظواهر التاريخية المؤثرة التي انتخبتها.

أدركُ أنني لم أغطِ أقل من قليل منها لكن هذا الضرب أو النوع من التحليل هو أمر من الأهمية لاستشراف المستقبل،وغالبا مثل هذا الضرب من الدراسات ليس عليه أن يقدم حلولا للأزمات المستقبلية في شكل توصيات أو يقدم نموذجا يجب الالتفاف حوله،وهي في الغالب محاولة لإيقاد شمعة في سردايب العقل السوداني والرجوع إلى جادة الطريق وتعزز الوحدة الوطنية وتكشف عن أدوات اجتماعية سودانية أوقفت حروبا وبنت مجتعمات متماسكة مثل (الجودية والصلح والتصاهر والعفو) وغيرها من القيم السودانية الصالحة التي يحتاجها مجتمع اليوم بشدة.

كما يجب أن نقرأ الحدث التاريخي في سياقه الزمكاني (الزماني والمكاني) مع فهم منظومة القيم السائدة وقتها لفهم الظاهرة التاريخية ومن ثم الخروج برؤى مناسبة مع إعمال منهاهج التحليل الاستراتيجي والجغرافي والسياسي للوقوف علة الأحداث حقيقة، وأرى أن التعامل مع الحدث التاريخي أيا كان وفق معطيات محركات ذاتية هو تجريم لأجيال مضت إلى ربها.، فعلينا أن نتوخى الحذر وأنت تتعامل مع مادة علمية لها شروطها ومنهجيتها حتي يكون شرحك للمادة مناسبا وعلميا.

مهمة المؤرخ أن يعمل على تنوير الأجيال القادمة بما يجب اتباعه أو تجنبه، مع توخي الأمانة ومراجعة الروايات الشفاهية والمراجع والمصادر وعقد المقارنات العلمية لتوثيق ما يُكتب لأن المؤرخ ينظم ذاكرة الأمة الجماعية وهذا لعمري أمر جسيم، اسأل الله أن يكون ما نكتبه في هذا السياق وأن يفهم هكذا، فأنا عندما أقف على مادة تاريخية لا ضد فكرة ولا مع أحد وإنما مجرد محلل إن امكن إطلاق هذه الصفة علينا.

جدير بالذكر أن تاريخنا يحتاج إلى تنقيب، وما هذه المادة إلا محاولة لبعث القيم الإيجابية من عمر أمتنا الماضي، حيث لاحظتُ أن كثيرا ممن يتعاطون الماضي علي أساس أن كله دماء وأشلاء وظلم واضطهاد، وهم بهذه النظرة السوداوية يقعون في المحظور لأن التاريخ هو تناول لسير وحيوات لأشخاص مضوا كان في عملهم ما هو إيجابي وما هو سالب. صحيح أننا لم نقم بإعادة قراءة الأحداث وترتيبها لنمنع وجود الفجوات المعرفية في تاريخنا ما تسمى بالتاريخ المنسي أو حتى المعلوم المسكوت عنه.

في هذا العمل حاولتُ أن أعالجه بصورة تخفف من جمود مادة التاريخ فتضمن الحوار والمقارنة وحتى ضروب الكتابة الساخرة، وذلك لوضع المادة التاريخية في قوالب خفيفة بعيداً عن القوالب العلمية الجامدة، وهي تجربة قابلة للنقد والمراجعة وهذا ما تجدني سعيداً له

أسهم في نقاش قضايا تاريخية وتأمل واستشراف الحاضر، وبذلك نكون قد ألقينا حجراً في البركة التي أصابها السكون، ويهدف هذا العمل في المقام الأول لإعادة بعث الروح الوطنية وكشف الملابسات التأريخية ليعالج القضايا في قالب جديد أو قل سردا يتناسب مع طرائق استيعاب وهضم المادة بيسر عند شباب اليوم.

ملاحظات قبل إسدال الستار.

نتيجة للأطماع الغربية والتنافس حول السيطرة على الموارد شجعت الحكومات الغربية البحث العلمي والرحالة والإداريين على وضع المؤلفات بالتالي لا يجب أن يُقرأ الكم المعرفي الغربي إلا بوعي على الرغم أن هناك أعمال فيها نوعاً من التوازن والمعقولية. أعمال قلم المخابرات وأدبيات وينغت نحت نحو إظهار صورة محددة لتقدم تبريرا أخلاقيا للاستعمار.

تناول الغربيين للمهدية قائم على خلاف ديني ورؤية سياسية، وبالتالي آراؤهم واضحة. ونتيجة لسوء تقدير الحكام في فترتي الخديوية والمهدية وحالة الظلم جاءت أنماط الكتابات الغربية متتابعة تقدم الصورة التي عمل قلم المخابرات على رسمها عن السودان.

تناولت ثلاثين حدثا أبطالها في فقرات تنوعت بين أقاليم السودان المختلفة وبين محاولة إيراد سير الرجال الذين قاموا بهذه الأحداث في تجربة أقرب إلى مؤلفي الموسوم (المحكي والمنسي من تاريخ السودان) والذي عالجت فصوله معالجة درامية، وتناولتُ فيه قضايا تاريخية لها أثر في ماضينا وحاضرنا أي لها امتدادات وأثر باقٍ وكتبتُه بالعامية ليكون مفهوماً.
في هذه التجربة أقدمُ دراساتي باستخدام مناهج الدراسات الاستراتيجية وحاولتُ أن اربط الماضي بالحاضر، وأعالج مسألة العقل الجمعي الوطني لإيجاد مخرج لأزماتنا المتناسلة والمتكررة.